غزل العقاد

للأستاذ سيد قطب

— ١٥ —

لقد جهد أخونا الغمراوى أن ينقض ما قلت عن الرافعى فجاء بمغالطات لم يعصمه منها ما يتشح به من دين وخلق محكرين للرافعيين وأغاليط يعرفها طلاب المدارس الثانوية عن المعادن وخواصها ! ثم لم يبلغ بعد الجهد والعرق التصبب إلا كما يبلغ من تقول له : إن هذه المسألة ليست من الرياضيات العالية ، فهى مسألة على « القواعد الأربع الأصلية » وحلها هو كذا . فيأتى لك بحل آخر ، ويظن أن ذلك يخرجها من الحيز الضيق ، حيز القواعد الأصلية ، إلى مجال الرياضيات العالية

ذلك شأنى وشأنه فى تفسير كلام الرافعى ، وربما كان ختام هذه المقالات ، تفكها بتلك «الغمراويات» والأمر لله !

على حدود تعريفنا للشاعر الكبير ، التقينا البارحة بالعقاد فى حديثه عن الجمال ، ونحن بالطبع لم نستقص ما قال ، ولكنها نماذج تبين الوجهة ، وتكشف عن المعدن ، وسيأتى غيرها فى « غزل العقاد »

وها نحن أولاء نلتقى به اليوم كذلك فى حديثه عن «الحب» على هذه الحدود ، بل نلمحه وراءها يميد ، يهضب فى خطواته الجبارة ، وهو ما يكاد يلقى باله إلى الزواحف والفواحص حوله من المتطلعين على الطريق !

يرغب بنفسه فى ارتكاب ظلامة ما وأرى — وحق الكلب[1] — أن هذه ليست بمادة مناقشة يسيرة يا جورجياس ، وإذاً فلنبحث فى عمق ما يجب أن نراه فى ذلك الشأن[2]

ب — مافا يا سقراط ؟ أعندك حقيقة الفكرة التى قد ذكرتها من البيان ؟

« يتبع » محمد حسن ظاظا

(١) كان سقراط يكثر من ترديد هذا القسم . ويرجع البعض هذا « الكلب » للاله المصرى أنوبيس . ويلاحظ هنا النهاية العظيمة التى انتهى سقراط إليها بشأن الخطيب الحق !

(٢) وينتهى هنا القسم الأول من المحاورة ويبدأ القسم الأهم الذى يتناول فيه أفلاطون طبيعة العدالة والظلم ، والذى يقرر فيه أن الخطيب الذى يجعل نفسه فوق القانون ويضلل الجمهور أكثر الناس ظلماً وشراً «المعرب»

فما الحب عند شاعرنا الكبير ؟

إنه لن يقف به عند الهفة الظامئة ، أو الفورة العارمة ، ولا عند الحنين والدموع ، أو الفرحة والاستمتاع . فالحب بعد هذا وذاك وشائج بالحياة الكبرى ، ومسارب فى الكون والطبيعة ، ومدارج وملاعب فى ساحة الخلود

وليس هو إحساساً فى نفس فرد ، ولكنه فورة وقوة فى نفس كون ، ودفعة ومضطرب فى ضمير دنيا ، وحياة وحركة فى قلب وجود

وليس هو مصادفة عابرة ، ولا فلتة غير مقصودة ، ولكنه نظام وقصد ، تهيئهما الأقدار لبلوغ مآرب وغايات ، ولتحقيق آمال وخيالات

والنفس الكبيرة التى يحملها العقاد ، والقلوب المنفسحة التى وهبت لأمثاله ، إنما هى معارض يبدى فيها هذا الحب فنونه ويلعب أدواره ويقرب فيها من غاياته ، ويحقق أحلامه فى أنسب الظروف والأحوال !

* * *

فالحب تمهيد للخلود ، وسريان على حياة الخالدين ، حتى لا يفاجأ القانون بهذه الحياة ، على بعد النقلة والشقة بين الحياتين !

هذى الليالى الدنيوية نفحة من عالم الملكوت والأعراف
لولا النعيم بها لما خطرت لنا مُثُلُ النعيم بجنة ألفاف

ولهذا يتيقظ المحبون ، ويعافون النوم . أليس النوم راحة لأهل الفناء من المتاعب وتجديداً لقوام المنخذلة فى كد المعيشة ، فما شأنه فى اللحظات المقبوسة من النعيم الخالد

يقظة الحب من خلود وماذا يصنع النوم بين أهل الخلود ؟
وإذا ذقت من موائد هذا الحـ ـب فالنوم من فتات المبيد

والحياة والأحياء ، إنما كانوا ينزعون للخلود ، ويبتغون الدوام ، فلما عز عليهم المطلب ، وأبت طبيعتهم ما يطلبون ، عوضوا عنه بالحب ، فكان عوضاً كاملا شائقاً تمناه الخالدون !

ما الحب ، ما الحب؟ إلا أنه بدل من الخلود فما أغلاه من بدل
نزهى به حين يزهى الخالدون بما نالوه من أبد باق ومن أزل
داموا فلما تقاضينا الدوام لنا قالوا لنا : « حسبكم يا لحب من أمل »

داموا وقد جسدونا فى سمائهم … على السعادة بين الموت والقبل

وفى هذا الاحساس الفريد، يلتقى الشاعر الكبير، بالعالم المفكر، بالفيلسوف العظيم، وتصح نظرة كل منهم فى الحب، وغاية الطبيعة منه، وذلك حد العبقرية فى الفنون

ويصح أن نتبع بما سبق قوله:

أتحلمين بشئ كامل أبداً … أتم من عالم فى قلب رعبين ؟

« فالكمال » المنشود فى الحب صنو « الخلود » أو غايته أو وسيلته: فهو صنوه لأنه غرض مثله من أغراض الحياة؛ وهو غايته، لأن الحياة إنما تريد الدوام لتتهيأ به للكمال؛ وهو وسيلته، لأن الحياة لن تنال الخلود وهي ناقصة متحيفة الجوانب والأجزاء وهو هذا كله فى حس الشاعر الملهم بما فى ضمير الأكوان والآباد

ويكمل هذه النظرة ويشرحها حديثه فى كتاب « مراجعات فى الآداب والفنون » فى فصل: « الزهر والحب »:

« لقد تعودنا أن نحسب العلاقة بين الذكر والأنثى أصلاً للحب بجميع صنوفه وألوانه. ولكننا إذا واجهنا الحقيقة من وجهة أعم وأعمق، تبين لنا أن هذا الحب بين الذكر والأنثى هو فرع طارئ من أصل إلهى قديم شامل للموجودات، مستقر فى طبيعة الوجود، هو حب الكمال والدوام، وليس الحب بين الذكر والأنثى غاية فى ذاته، وإنما هو واسطة من وسائط هذا الحب الأصيل »

والحب قد احتضن الحياة وهى جنين، حتى إذا برزت للوجود أخذ بيدها وقادها فى مسالك الطبيعة، وحاول أن يسمو بها عن منبتها وينزع بها إلى الخلد والسماء:

هى الحياة جنين الحب من قدم

لولا « التجاذب » ما ضمتك أكوان

والتجاذب بين « الالكترون » و « البروتون » يقوم عليه بناء الذرة، فتبنى على أساسها الأكوان. ولم يكن العقاد فى حاجة للعلم بهذه النظرية التى أثبتها أخيراً « تحطيم الذرة » ليقول إن الحياة جنين الحب، ولكنها الشاعرية الكبيرة تنساح فى تيارها العلوم والثقافات حتى تعود جزءاً منها لا يماز عن طبيعتها وماهيتها

والحب يقود هذه الأرض، وينزع بها عن منشئها، ولهذا ينادى ربان الزورق النائم، وهو فى سبحة من سبحات الحب:

نام ربانُنا وهمنا بعيدا … فامض بالفلك فى يدى « كوبيد »
واتبعه فالكون أجمع يا فلـ … ـك لقى فى يمين هذا الوليد
هو ربان هذه الأرض فأمنـ … ـه على ملكك الصغير الزهيد
وتعلم منه عبور السموا … ت فما دون سبحه من بعيد

وإذا كان الجمال كما قدمنا آنفاً هو خلاصة آمال الوجود وأشواقه، فحب هذا الجمال حب للوجود، ما كان منه ومن كان. والعانق للجمال معانق للفضاء بأسره بما فيه من أنواع وأطباع. ومن يعش فى بحبوبة الحب فانما يعيش فى الكون كله، فهو مدار العالم. يتضح كل ذلك فى قصائد متفرقة:

إنا لمن معشر حب الجمال لهم … حبلا كان فى الدنيا ومن كانوا
وأنا العانق للفضاء بأسره … فى جسم أغيد كالندى شفاف
نحن فى بحبوحة الحب وهل … غير هذا الحب فى الكون مدار؟

والحب رفعة للنفس، ونقلة إلى عالم النجوم، وعمق فى الحيوية تطول به الأعمار، وإيغال فى المجاهل والآباد والعهود والأزمان

كم علونا من دارة بعد أخرى … وطوينا العهود بعد العهود
والحب من يغش ركبه … يساير النجم كل حين

لحظة ترفع عمرى … حقبا متصلات
رب عمر طال بالرفـ … ـعة لا بالسنوات
لحظة لا بل خلود … لاح بين اللحظات
كالسموات تراها … فى شباك الحلقات
رب آباد تجلت … من كوى مختلفات
وقطيرات زمان … ملأت كأس حياة

وإنى لأكتفى فى هذه النماذج، بما سقتها من أجله؛ وإلا فوراء هذا مجال واسع لبيان الطرافة فى الحس والتعبير، وفى رؤية الخلود من خلال هذه اللحظات، كالآباد تتجلى من كوى مختلفات أو كالقطيرات التى تمتلىء بها الكأس، وهى قطيرات زمان فاضت بها كأس حياة ...

والحب قدرة قادرة، تهب أصحابها مشابه من الألوهة، ومقابس من النبوة، وتنضح بالمعجزة. لا، بل إنها لتهب فى بعض الأحيان ما لا تهبه الأقدار:

ليس مكان فى السماء كلها … عن شاعر أو عاشق بناء

بجناحيه من الحب ومن   حسنك الخفاق ينجاب الفضاء
داونى داونى فقد كان عيسى   يبعث الداثرين بالأسماء
وكلا الحب والعبادة وحى   فوق ذرع الحجا وفوق الذكاء
أمسيت أنظر لا أرى أمنية   كبرت وما خاق بالاستخفاف
تبسم ألا يرضيك أن ابتسامة   بثغرك أمضى من صنوف القادر

والحب بهذه القدرة يجمّل الحياة ويجددها ، ويخلق منها دنيا بعد دنيا ، وكونا وراء كون :

انظر فهل تجد المروج كعهدها   من قبل فى الحدقات والآماق
وهى السماء أم ارتقت أجوازها   فى النور آلافاً على آلاف ؟

ويقول فى أبيات بعنوان « معنى جديد » :

قد شهدتُ الزمان فى كل وجه   وبلوتُ الحياة فى كل معنى
وختمت الدنيا ! فما من قديم   كان إلا يعاد وصفاً ولونا
فاذا للحياة معنى جديد   لم نجده من قبل أو لم يجدنا
ذاك معناك أنت حين وهبت القـ   ـلب نوراً من طلعة الشمس أسنى
ومنحت الحب الالهى حبًّا   وكسوت الحسن السماوى حسنا

وفى قصيدة بعنوان : « جمال يتجدد »

كلما قلت لى الربيع جميل   قلت حقاً وزاد عندى جمالا
عجباً لى . بل العجيبة عندى   صور الكون كم يعمن كمالا
خلتنى قد وعيتهن عياناً   وتتبعت من وعوها خيالا
شاعراً عاشقاً وقارئ كتب   قرأ الكتب دارساً ، فأطالا
فاذا نظرة بلحظك تبدى   صوراً ما طرقن عندى بالا
بمداد الأنوار فى أعين الحـ   ـب نعد الأكوان والأجيالا

وبعض هذا كان يمكن سوقه فى معرض الحديث عن « الجمال » ولكن التفرقة بين حديث الحب وحديث الجمال فى النفس الشاعرة ليس بمستطاع فى كل الأحوال ، وكلاهما مادة واحدة فى الحس والخيال

ويحسن أن نتبع حديث الشعر بحديث النثر ، وكلاهما يتساوق ويتكامل فى فن العقاد . يقول فى كتاب المراجعات من فصل بعنوان : « أصل الجمال فى نظر العلم » :

« ومما لا مراء فيه أن الحب يرينا من فتنة الحياة ما لا نراه بغيره وأن جمال المرأة أغلى محاسن هذه الدنيا المشهودة . بيد أن الحب لا يخلق فتنة الحياة ؛ وليس جمال المرأة هو كل ما فى الدنيا من المحاسن ، ولكنهما يصبغان الدنيا بهذه الصبغة لأنهما يوقظان القلب ويذكيان الشعور ويمسان كوامن الوجدان فيفتح لما حوله ، ويرى ما لم يكن يراه ، ويستوعب ما كان يلمحه بطرف العين ، ويستحسن ما كان فى غفلته عن حسنه قبل أن تتراءى الدنيا لخواطره فى ثوبها الجديد . وكذلك تفعل الخمر حين تركض بالشعور وتلهب الدم فانها ترى النشوان من المحاسن ما لم يكن يراه فى صحوه وتضاعف إحساسه وعطفه فيشعر بسرور هذا العطف فى داخل نفسه ويشعر فى الدنيا ببهجة تخفى على من حوله ؛ ولذلك قيل إن الحب سكر أو أنه ضرب من الجنون »

والحب ملخص للأحاسيس الإنسانية فى نفس الشاعر

غض عينيك قليلا واستمد   خطوات العام فى الأفق الوسيع
كم ترى من خفقة غنت بها   ساعة العمر التى بين الضلوع
كم ترى من قبلة رنت بها   تلكم الساعة ؟ قل لو تستطيع
كم ترى من نشوة حامت بنا   حول عليين والعرش الرفيع
هو « حب » فاذا فرقته   فهو ما راع قديماً ويروع

ووراء دلالة هذه الأبيات على ما أوردناها له تلمح ملكة التشخيص والتصوير ، وهى تعمل عملها فى نفس الشاعر وتخلق له من لحظات حبه شخوصاً ماثلة فى ضميره ، يغمض عينيه عن الدنيا الظاهرة ليتملاها ويستمتع بها واحدة واحدة ، ويعمق بهذا متعة الحب ، ويجوف خطراته

ولا ننس وراء ذلك كله هذا الخيال الطريف الذى يصور « العام » وهو يخطو فى الأفق الوسيع ، مرموقاً باللحظ والانتباه والاعجاب !

والحب معلم ، يهب الحس فطانة ، والروح ثقافا ، والفكر يقظة ، وفيه مهرب من الحياة إذا ساءت إلى دنيا جديدة :

إذا ساءت الدنيا ففى الحب مهرب   وتحسن دنيا من أحاط به الحب
فبالحب تدرى الحسن والقبح عندها
وفى الحب علم لا تعلمه الكتب

والحب هو الذى يعمر القلب ويحييه ، وحين يخلو القلب منه ينتهى إلى عالم خراب ، وجدب كجدب اليباب :

هو الحب الذى يعـ   ـمر هذا القلب لا الجهد

حبك إن أخل منه يوماً   خلوت في عالم خراب
يمر بي اليوم لا أراك كما   يمر بالأرض عامها القاحل

وهو ليس دموعاً ولا آهات ، وليس ابتسامات وتثنيات :

إنما الحب شراب عاصف   يسكر الراوين منه والظماء

لهذا كله فالكون والحياة حفيان بالحب ، يستقبلانه بما فيهما من سرور وابتهاج ، ويهيئان له من الطرافة والجدة كل ثمين مذخور ، ويبذلان له من كنوزهما وأسرارهما ما لا يباح ، ويعترفان بحقه عليهما وفضله :

وهو يقول من قصيدة عن يوم لقاء :

قال : سيوفي زائراً في غد   يا لغد ! كيف غد يشرق
بالشمس ؟ أم شمس غد وحده   مذخورة من أجله تخلق
كيما ترى الدنيا ، وما شأنها   سربالها المبتذل الخلق
في حلة لا تتحلى بها   إلا لمن يَعشق أو يُعشق

وفي قصيدة بعنوان عروس الليالي :

عروس الليالي تهبط اليوم من عل   وتدنو على طول النوى والتدلل
سرت بين شرق من ضياء ومغرب
وبين جنوب من ضياء وشمال

ولما سألته الحياة جواز المرور بها ، لم يجد أحظى لديها من الحب يفتح منها المغاليق والستور :

قالت جوازك قلت هاك   حب أنال به رضاك
فدخلت في حرم الحيا   ة وراء ألفاف الشباك

***

هذا هو « الحب » عند العقاد : عالم مترامي الأطراف ، وفن من أعجب فنون الحياة ، ومجال للخيال والحس والتعبير على غير مثال

ونحن نعيدها مرة أخرى : لو أن شاعراً قال هذا وسكت لجاوز حد الشاعر الكبير

وعلى هدى من رأيه في الجمال ، ورأيه في الحب ، سنتحدث عن « غزل العقاد » . وإن كان كثيرون سيتساءلون الآن : ماذا سيقول غير ما قال ؟ وسنجيبهم بعد قليل : تلك أوليات المقال

« حلوان »   سيد قطب

حول أدب الرافعي

بين القديم والجديد

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

- ٦ -

لعل من الخير أن ننظر نظرة في الأمور التي تشبه أن تكون أصولا في النقد عند صاحب مقالات « بين العقاد والرافعي » والتي يمكن استنباطها من كلامه

ولعل من أبرز هذه الأصول مايصح أن يسمى بالعلمية. ولسنا نريد بالعلمية هنا علمية التفكير ، فقد وزناه من ناحية علمية التفكير فلم نجده منها في شيء ؛ إنما نريد بها هنا علمية الأفكار . فصاحب تلك المقالات معجب جداً فيما يبدو بالعلم وبما يمكن أن يدخله الأديب في أدبه من النظريات أو الحقائق العلمية . تعرف ذلك من طبيعة أكثر الأمثلة التي ضربها لتفوق العقاد عنده على الرافعي ، وتعرفه من تجشيمه نفسه قراءة ما قرأ من المباحث العلمية المنقولة إلى العربية كي يرق كما يقول إلى محاولة استيعاب العقاد . وهذه النزعة إلى العلم نزعة نشكر فيه لولا ما يفسدها عليه في الوضوع الذي هو بصدده من تعصب للعقاد يجعله يتلقى كل ما يرد أو يتوهم أنه ورد على قلم العقاد من الأفكار العلمية كما يتلقى الوحي بالتسليم والإكبار المطلقين

والمثال الأول الذي ضربه لاحتياج الناظر في أدب العقاد إلى ألوان من الثقافة كالتي استمدها هو من قراءاته العلمية قطعة من « وحي الأربعين » عنوانها « سعادة في قمقم » . وقد تساءل بعد أن ذكر أبياتها التسعة « هل فهم الرافعيون شيئاً من هذه القطعة مع وضوح كل لفظة فيها وكل عبارة ؟ » . وما نظن الرافعيين أو غير الرافعيين يفهمون من مرماها شيئاً حتى يبلغوا البيت السادس منها

بسر على شفتي فاتن   يباح إلى شفتي مغرم

وهو بيت رقيق ليس في القطعة كلها مظهر للشاعرية غيره ، إذا بلغه القارئ ظن أن القطعة كتبت في قبلة ، لأن «السر الذي